



التَّوَاصلُ الأدبيّ

مجلة نصف سنوية محكمة

تعنى بقضايا الأدب العام والمقارن والنقد والترجمة

تصدر عن مخر الأدب العام و المقارن
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية
جامعة باجي مختار / عنابة (الجزائر)

ديسمبر 2015

العدد الخامس

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة باجي مختار - عنابة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية



التواصل الأكاديمي

مجلة نصف سنوية محكمة
تعنى بقضايا الأدب العام والمقارن والنقد والترجمة
تصدر عن مخبر الأدب العام والمقارن

إدارة المجلة: أ.د. عبد المجيد حنون
رئيسة التحرير: د. سامية عليوي

أمانة التحرير:

- د. سامية عليوي

- د. عمار رجال

- أ. سليم لسود

منشورات مخبر الأدب العام والمقارن

ديسمبر 2015

العدد الخامس



العنوان: مختبر الأدب العام والمقارن،

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية،

جامعة باجي مختار / عنابة

ص.ب. 12 عنابة - 23000 / الجزائر

الموقع الإلكتروني: llgc.univ-annaba.dz

البريد الإلكتروني: ettawassol.eladabi@gmail.com

الترقيم الدولي الموحد للمجلات: ISSN 1112-7597

الهيئة الفخرية:

- 1/ أ.د. مختار نويوات (جامعة باجي مختار - عنابة-) / الجزائر
- 2/ أ.د. بيار برونال (جامعة الصوروبون) / باريس
- 3/ أ.د. حسام الخطيب (جامعة قطر) / قطر
- 4/ أ.د. يوسف بكار (جامعة اليرموك) / الأردن
- 5/ أ.د. عز الدين المنصورة (جامعة فيلادلفيا) / الأردن

لجنة العدد العلمية:

- | | |
|---|--|
| 12/ أ.د. بشير إبرير (جامعة عنابة) / الجزائر | 1/ أ.د. عبد المجيد حنون (ج. عنابة) / الجزائر |
| 13/ د. عمار رجال (ج. عنابة) / الجزائر | 2/ د. يد الله فارسي (ج. جمران، أهواز) / إيران |
| 14/ أ.د. نظيرة الكنز (ج. عنابة) / الجزائر | 3/ أ.د. فاتحة الطّايّب (ج. مُحمّد الخامس) / الرباط، المغرب |
| 15/ أ.د. صالح بورقي (ج. عنابة) / الجزائر | 4/ أ.د. عبد الرحمن تيرماسين (ج. بسكرة) / الجزائر |
| 16/ د. مديحة عتيق (ج. سوق اهراس) / الجزائر | 5/ أ.د. رشيد قريبع (ج. قسنطينة 1) / الجزائر |
| 17/ أ.د. إسماعيل بن اصفية (ج. عنابة) / الجزائر | 6/ د. بومدين جلاّلي (ج. سعيدة) / الجزائر |
| 18/ أ.د. ادريس اعبيزة (ج. مُحمّد الخامس) / الرباط، المغرب | 7/ أ.د. رشيد شعلال (ج. قالمة) / الجزائر |
| 19/ د. مُحمّد بلواهم (ج. عنابة) / الجزائر | 8/ أ.د. علي خفيف (ج. عنابة) / الجزائر |
| 20/ د. سامية عليوي (ج. عنابة) / الجزائر | 9/ أ.د. وحيد بن بوغزير (ج. الجزائر 2) / الجزائر |
| 21/ د. جلال خشاب (ج. سوق اهراس) / الجزائر | 10/ د. مُحمّد القرعان (ج. اليرموك) / الأردن |
| 22/ د. تامر فايز (ج. القاهرة) / مصر | 11/ أ.د. صالح ولعة (جامعة عنابة) / الجزائر |

شروط التّشّير في المجلّة

- * تنشر المجلة البحوث والدّراسات العلمية الأصيلة التي تعنى بقضايا الأدب العام والمقارن والنقد والترجمة، شريطة ألا تكون منشورة بأيّة صيغة كانت، أو مقدّمة للنّشر.
- * تنشر المجلة البحوث باللّغة العربية أساساً، وباللّغتين: الفرنسية أو الإنجليزيّة.
- * تنشر المقالات المترجمة شرط أن ترفق بالنّص الأصليّ.
- * تكتب البحوث العربيّة بخط (Traditional Arabic) حجم 16، والهوامش 14، وتكون الهوامش في آخر المقال وغير آليّة. أمّا البحوث الأجنبية، فتكتب بخط (Times New Roman) مقاس 14، والهوامش 12.
- * يرفق البحث بملخّص عربي، وملخّص بإحدى اللّغتين: الفرنسية أو الإنجليزيّة، (لا يقل عن خمسة أسطر ولا يزيد عن العشرة)؛ تحدّد فيهما الإشكالية وأهمّ العناصر والنتائج؛ ويُرفق الملخّص بكلمات مفتاحية لا تقلّ عن خمس كلمات ولا تتجاوز العشرة.
- * تخضع كلّ البحوث للتّحكيم العلمي، ويخطر الباحث بالنتائج.
- * يتحمّل الباحث مسؤولية تصحيح بحثه وسلامته من الأخطاء.
- * لا تعبّر المقالات بالضرورة عن رأي المجلة.
- * يخضع ترتيب الموضوعات لاعتبارات فنيّة لا غير
- * لا تُعاد البحوث إلى أصحابها نُشرت أم لم تُنشر
- * ترسل كلّ البحوث عبر البريد الإلكترونيّ للمجلة:

ettawassol.eladabi@gmail.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الافتتاحية	07
الدكتورة: سامية عليوي	
1. أ.د. عبد المجيد حنون	11
أبو العيد دودو رائد الأدب المقارن في الجزائر و توجهه التاريخي	
2. أ.د. فاتحة الطايب	27
النموذج العربي بصفته لغة ثانية موازية في الأدب البرازيلي (من خلال "الطبيب النفسي" لمشادو دي أسيس)	
3. أ.د. محمد رجب الباردي	49
الرواية والتاريخ في كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج	
4. د. وردة معلم	69
بناء الزمن في رواية "عابر سرير" لأحلام مستغانمي	
5. د. أحمد محمد المشرف الحراحشة	105
الاتساع في الدلالات أسماء النساء في الشعر الجاهلي (هزيرة أمموزجا)	

6. د. مصطفى كبحل 141
إشكالية الترجمة واستئناف القول الفلسفي العربي عند طه عبد الرحمان
7. د. رمضان حينوني 161
الأدب العربي القديم في كتابات المستشرقين الفرنسيين:
(أندري ميكال) و(شارل بيلا) نموذجين
8. أ.د. إسماعيل بن اصفية 183
الشخصية التراجيدية في المسرح الشعري
أسس بنائها وأنواعها
9. أ. سلمى غنجيو 201
البطولة الأنثوية في المسرح العربي "دراسة في نماذج"
10. د. مديحة عتيق 225
مناقشة التخوم:
الشعر الأمريكي - العربي ومأزق الهوية المزدوجة

الافتتاحية

ها هي "مجلة التواصل" الأدبي، بعد غياب تعود عنقاء تنهض من جديد، وتعاود الصدور بعد تعثرها مرّتين، كان آخرها غياب مراجعة نوعية تطلّبها تغيير طاقمها وتجديد هيئاتها (هيئة تحريرها، هيئتها العلمية، وشروط النشر فيها)؛ فهي في إصدارها الجديد تفتّح على الإنتاج العلمي المحلي والدولي، وتسعى إلى التطوير المستمر، وتفتح صدرها لملاحظات الغيورين وانتقادات العلماء التي تسعى إلى رفع مستواها العلمي أو التقني.

تصدر المجلة عددها الخامس ثريا بمقالات الباحثين من الجزائر وخارجها، تنوّعت موضوعات أبحاثهم بين مجالات علمية متعدّدة: أدب مقارنة، دراسات نقدية (رواية ومسرح)، دراسات فلسفية، وترجمة؛ كما ضمتهم بلدان أربع من المغرب العربي: (الجزائر بجامعة ستّة)، وتونس، والمغرب، ومن المشرق العربي: الأردن.

أمّا الموضوعات، فتنازعتها أربعة محاور: نفتّحها بمحور خاصّ بالأدب المقارن، ويضمّ مقالين، أولهما: مقال يعرف بعلم رائد من أعلام الأدب المقارن وروّاده في الجزائر، وهو "الدكتور أبو العيد دودو" العالم المتواضع الذي أمضى حياته في خدمة الجامعة الجزائرية، أستاذا، مؤلفا ومترجما؛ وثانيهما مقال يعرض لـ "النموذج العربي بصفته لغة ثانية في الأدب البرازيلي" ركّزت فيه صاحبتة على واحد من أهمّ الكتيّاب الواقعيّين في برازيل القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو مؤسس الأكاديمية الأدبية البرازيلية الكاتب العالمي خواكيم ماشادو دي أسيس، من خلال نصّه "الطبيب النفسي"؛ أمّا المحور الثّاني، فيتعلّق بنقد الرواية، وقد ضمّ مقالين: أولهما عن "الرواية والتّاريخ"، اتخذ فيه صاحب المقال "رواية الأمير" أنموذجا لدراسته، يليه مقال "بناء الزّمن في رواية عابر سرير"، تتبّعت فيه صاحبتة طريقة جيران جينيت في تقصّي مختلف الحركات الزّمنية في الرواية؛ أمّا المحور الثّالث، فقد تفرّد ببحث واحد

حول نقد الشّعر، ركّز فيه صاحبه على أسماء النّساء واتّساع دلالتهما في الشّعر الجاهلي، مكثفيا بقصيدة "هريرة" للأعشى، معتمدا المنهج التّأويلي في رصد موضوع القصيدة الرئيس؛ وتفرّد المحور الرّابع ببحث عن "إشكالية ترجمة الفلسفة"، ركّز فيه صاحبه على مقارنة طه عبد الرّحمن الدّاعية إلى تأسيس فلسفة عربية من خلال إعادة النّظر في ترجمة الفلسفة؛ كما تفرّد المحور الخامس ببحث عن "الأدب العربي القديم في كتابات المستشرقين الفرنسيّين"، ركّز فيه صاحبه على علميّين من أعلام الاستشراق الفرنسي وهما: شارل بيبلا وأندري ميكال؛ أمّا المحور السّادس، فقد ضمّ مقالين: أحدهما عن الشّخصية التّراجيدية في المسرح الشّعري: أنواعها وأسس بنائها، على اعتبار أنّ الشّخصية المحورية تسهم في إنجاح المسرحية إذا ما أحسن اختيارها؛ في حين ركّز البحث الثّاني على البطولة الأنثوية في المسرح العربي، تناولت فيه صاحبه مجموعة من النّماذج الأنثوية التي لعبت دور البطولة في المسرح العربي؛ أمّا المحور السّابع، فقد كان مخصّصا للترجمة، وضمّ مقالا عن الشّعر الأمريكي - العربي ومأزق الهوية المزدوجة، مركّزا على بعض الشّعراء الأمريكيين العرب المعاصرين الذين تعرّضوا لقضية الهوية المزدوجة.

يخضع ترتيب المقالات في المجلّة إلى اعتبارات فنيّة لا غير؛ ويختلف تنوّع موضوعاتها بتنوّع ما يصلنا من مقالات.

تبنّى المجلّة حرّية التّفكير والتّعبير؛ لذلك، فإنّ ما يُنشر فيها من مقالات لا يعبر بالضرورة عن رأي المجلّة، وإنّما يعبر عن آراء أصحابه.

تطمح مجلّة "التّواصل الأدبي" بعد قيامها من عثرتها، إلى أن تشقّ لنفسها طريقا بين المجلّات الوطنية والعالمية - إن أمكن ذلك -، ولن يتحقّق لها هذا الطّمح إن لم تجد لها ركائز علمية تركز عليها، وسواعد تسندها، ولن تكون لها قائمة إلاّ بجهود طاقمها العلمي أوّلا، وهيئة تحريرها ثانيا.

الافتتاحية

تسعى "التواصل الأدبي" إلى تحقيق الرّصانة العلمية، لذلك، تتّخذ خبرتين لكلّ مقال، ويطلب من صاحب المقال إجراء التعديلات المطلوبة - إن رأى الخبيران ذلك-، وقد يعضد الخبيرين ثالث إن كان أحد التقريرين إيجابيا والآخر سلبيا، أمّا إذا كان كلاهما سلبيّ، فتعذر لصاحب المقال عن نشر مقاله ويُخبر بذلك.

يصدر كلّ عدد من المجلّة بدءاً من العدد الخامس بهيئة علمية فعلية، أسهمت فعلاً في تقييم مقالات العدد، لذلك لن تكون هيئتها العلمية ثابتة، بل تختلف من عدد إلى آخر.

تتبرأ مجلّة "التواصل الأدبي" من كلّ ما يمكن أن تضمّه المقالات من أخطاء غير مصحّحة، ويتحمّل صاحب المقال وحده مسؤولية ما يرد في مقاله. نتمنى أن يجد كلّ قارئ للمجلّة ما يرضي فضوله المعرفي بين ثنايا صفحاتها، وأن يجد في كلّ مقال من مقالاتها نافذة تفتح أمامه أفقا معرفيا جديداً، يدفعه إلى الكتابة والعطاء أو الإقبال على قراءة أعدادها المقبلة، فمن قرائها تستمدّ المجلّة بقاءها واستمرارها.

وختاماً، تتقدّم رئيسة هيئة تحرير المجلّة بالشّكر الجزيل إلى الأساتذة الأفاضل الكتاب الذين أسهموا في إثراء هذا العدد بمقالاتهم، فهم ثروة المجلّة ومعينها الذي ترجوه ثراً لا ينضب؛ كما تتقدّم بالشّكر الجزيل إلى الأساتذة الخبراء -جنود الخفاء / القراء الأوائل لمحتوى "التواصل الأدبي" الذين كانوا دليلاً يهدي كتابنا إلى سبيل المجلّة؛ كما تتقدّم بالشّكر إلى الهيئة الإدارية (عمودا المجلّة) الساهرين على نجاحها: مدير المجلّة، وهيئة تحريرها التي أنفقت الوقت الطويل في تحرير مادّتها، وترتيبها وتصنيفها، فلهم جميعاً جزيل الشّكر والعرفان.

رئيسة هيئة التحرير:

د. سامية عليوي

الرواية والتاريخ في كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج

Roman et Histoire

dans « Kitab al Amir » de Wassini Alaraj

الأستاذ الدكتور: محمد رجب الباردي
جامعة: صفاقس / جامعة تونس (تونس)

Résumé :

Dans cet article nous distinguons entre histoire et historique . L'histoire est un ensemble organisé d'évènements et de représentations concernant une réalité réalisée orientée vers le passé alors que l'historique est un ensemble d'évènements et de représentations concernant une réalité possible orientée vers le futur. Et nous partons d'une conception du roman historique « dans le roman historique se trouvent des héros qui sont des hommes normaux mais représentatifs mis dans une époque de crise pour que deux cultures se mettent face à face, Ces hommes se confondent avec de nombreux personnages et d'importants évènements et expriment la manière avec laquelle une société vit son histoire ». pour faire l'analyse du roman « Kitab alAmir » dans l'objectif d'étudier le rapport entre l'historique et le fictif et d'analyser le discours idéologique qui oriente le roman ainsi que les procédés poétiques réalisés.

الملخص:

في هذا المقال نُمَيِّز بين التاريخ والتاريخي. فإذا كان التاريخ منظومة من الأحداث والتمثيلات لواقع قائم متجه نحو الماضي فإن التاريخي هو منظومة من الأحداث والتمثيلات لواقع ممكن متجه نحو المستقبل. وانطلاقاً من مفهوم للرواية التاريخية مفاده "في الرواية التاريخية أبطال هم رجال عاديون ولكنهم يمثلون يوضعون في عصر أزمة تتصادم فيها ثقافتان ويختلطون بشخصيات كثيرة وأحداث هامة ويعبرون عن الطريقة التي بها يعيش مجتمع تاريخه" حللنا رواية "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج لننظر في العلاقة القائمة بين التاريخي والمتخيّل وفي الخطاب الفكري الذي تريد الرواية أن تنتجه وفي الأساليب الإنشائية التي تميّز هذا النموذج في كتابة الرواية التاريخية.

الكلمات المفتاحية: تاريخ / تاريخي / رواية
تاريخية / سيرة / تخيّل / إحالة.

تبدو العلاقة بين الرواية والتاريخ علاقةً إشكاليةً. فالرواية خطابٌ أدبيٌّ قوامُهُ الفنُّ والإبداعُ والتَّخيُّلُ، والتَّاريخُ خطابٌ علميٌّ يسعى إلى الحقيقة وهو يبحث في الأحداث ويفسِّرها. ولذلك لا يمكن للرواية بما هي خطابٌ أدبيٌّ أن تكتبَ التَّاريخَ، ويستحيل على التَّاريخ بما هو خطابٌ علميٌّ أن يتحوَّلَ إلى رواية. ومع ذلك ظهر مصطلحُ **الرواية التاريخية** وهو يُفهم فهمًا عامًّا يعني كلَّ تلك النِّصوصِ الروائيَّةِ الَّتِي تتعامل مع التَّاريخ بشكل من الأشكال. ولكنَّ الحدثَ التاريخيَّ لا يكاد يغيب في الرواية عموماً. فمنذ نشأتها وظَّفت الحدثَ التاريخيَّ وجعلته إطاراً لمروياتها دون أن تتحوَّلَ إلى روايةٍ تاريخيةٍ.

1- وفي الحقيقة من الصَّعب أن نصل إلى تحديدٍ فنيٍّ ثابتٍ لمفهوم الرواية التاريخية. ذلك أنَّ هذا النَّوعَ الروائيَّ يستعير قوانينه الفنيَّة من الجنس الأدبيِّ في حدِّ ذاته عبر تطوُّره التاريخيِّ، ولذلك لا نستطيع أن نحدِّد قوانين فنيةً واضحةً تميِّز هذا النَّوعَ الروائيَّ عن الأنواع الروائيَّة الأخرى.

1-1 في الرواية التاريخية يمكن أن نتحدَّث عن التاريخيِّ بالتوازي مع الروائيِّ، وقد عرَّف جورج لوكاش التاريخيِّ في كتابه الشَّهير "الرواية التاريخية" بأنَّه "اشتقاق الشخصية الفردية للشخصيات من خصوصية عصرها التاريخية"، وهو كذلك عنده "الهيمنة الفنية على التاريخ وإمكانية المبدع تعميم خصوصية الحاضر المباشر بإيلاء الأهمية التاريخية للموسسة للزمان والمكان والظُّروف التاريخية والنظرة إلى الإنسان بوصفه نتاج نفسه ونتاج نشاطه في التاريخ بما يؤدي بالضرورة إلى اعتبار التَّقدم الإنساني قانوناً تاريخياً وفلسفياً محسوماً" على حدِّ عبارة عبد الرزاق عيد⁽¹⁾. وبهذا المعنى يمكن أن نقول إذا كان التاريخ "منظومةً من الأحداث والتَّمثلات لواقع قائم متَّجه نحو الماضي" فإنَّ التاريخيَّ هو "منظومةً من الأحداث والتَّمثلات لواقع ممكن متَّجه نحو المستقبل" على حدِّ عبارة المغربيَّ عبد الفتاح الحجمري⁽²⁾.

1-2- لقد عُرِّفت الرواية التاريخية في القواميس تعريفا عاما. "الرواية التاريخية هي الرواية التي يُستوحي الفعل فيها من الأحداث والشخصيات التاريخية"⁽³⁾، "الرواية التاريخية هي رواية تتخذ مرحلة من التاريخ تتداخل فيها عامة أحداث وأشخاص حقيقيين كانوا أو خياليين خلفية لها"⁽⁴⁾، "الرواية التاريخية هي رواية مستوحاة إن كثيراً أو قليلاً من مرحلة من مراحل التاريخ. فهي تقدم معلومات حقيقية... لكنها تعرض أيضا معلومات خيالية"⁽⁵⁾ وتعرف أيضا بوظائفها. فالرواية التاريخية النموذجية لدى بعض النقاد هي التي تتوفر فيها الشروط التالية: القدرة على إعادة تشكيل واقع أهمله أو تناساه التاريخ الرسمي - ضرورة تأدية وظيفتين معا: وظيفة نحو التاريخ وأخرى نحو الزمان - ضرورة أن تتحقق اللحظات التاريخية بصورة شعرية تبعث الإحساس العميق بالتاريخ - ضرورة السيطرة على الأحداث التاريخية لفائدة الأحداث الشخصية للأبطال والشخصيات.

1-3- ولكن أفضل ما قرأت في هذا السياق ما كتبه جان موليно. في الرواية التاريخية أبطال هم "رجال عاديون ولكنهم ممثلون représentatifs يوضعون في عصر أزمة حيث تتصادم ثقافتان أو فريقان ويختلطون بشخصيات كثيرة وأحداث هامة ويعبرون عن الطريقة التي بها يعيش مجتمع تاريخه"⁽⁶⁾. لعل هذا التعريف يتلاءم إلى حد كبير مع مرويّات كتاب الأمير لواسيني الأعرج، ومع ذلك فإن الرواية باعتبارها فنّاً وإبداعاً لا يمكن أن تخضع لأنموذج محدد، ذلك أنّ واقع الكتابة في الرواية التاريخية يعرض نماذج أكثر تنوعاً وثراءً. وقد اخترنا رواية كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج لنطرح مسألتين: كيف تعامل المؤلف مع التاريخ في هذه الرواية؟ وما هي المقومات الأساسية لهذا النموذج في الكتابة التاريخية في الرواية العربية المعاصرة؟

2- هذه الرواية التي كتبها واسيني الأعرج وقد صدرت طبعتها الأولى عن دار الآداب عام 2005 هي رواية سيرة تاريخية، تبدو فيها السيرة بؤرة كتابة التخييل التاريخي "بوصفه تشخيصاً لاختبار رحلة الشيخ من حيث هي حافز لتقديم موضوع الحكاية"⁽⁷⁾. فالمدار الحكائي المركزي يتمثل في سيرة الأمير عبد القادر الجزائري منذ أن استخلفه أبوه ليكون أميراً وسلطاناً على الجزائر والمصادقة على البيعة المؤرخة في الثالث من رجب عام 1248 للهجرة الموافق للسابع والعشرين من نوفمبر عام 1832⁽⁸⁾ إلى أن أطلق سراحه بقرار من نابليون ونُفي إلى القسطنطينية في ديسمبر عام 1852.

2-1- والسيرة الروائية في الواقع سيران. فمع سيرة الأمير عبد القادر تُروى سيرة الأسقف مونسينيور أنطوان دوبوش Monseigneur Antoine Dupuch. يروي السيرة الأولى ساردٌ تقليديٌّ مجهولُ الهوية ويروي السيرة الثانية خادمُ الأسقف الفرنسي جان موي Jean Maubet. ولكن هذه السيرة تتقاطع مع السيرة الأولى وتقدم إخباراً يضيء جوانب من حياة الأمير ومن مواقفه السياسية. وإذا كانت سيرة الأمير رحلة رجلٍ قاوم المستعمر وسعى إلى توحيد القبائل الجزائرية من أجل المحافظة على الدولة ولكنه أخفق واستسلم للعدو فإن سيرة الأسقف ديبوش هي سيرة رجل تعاطف مع الأمير وأحبّه لما كان مقيماً بالجزائر قبل أن ترحله السلطة الفرنسية إلى بلده الأصلي لتعود رفاته إلى الجزائر حيث تدفن هناك كما كانت رغبته قبل أن يموت. ومن المفارقة أن نلاحظ أنّ الرواية تبدأ بسيرة الأسقف الفرنسي وتنتهي بها. تبدأ الرواية بمشهد جان موي وهو ينقذ وصية الأسقف "هذه الأتربة التي وطئها مونسانيور أو نام عليها للمرة الأخيرة. إنهما ترابه الذي أحبّه وانتهى إليه باستكانة. هكذا أوصاني، أن أزرع تربة رفاته مثل الذي يزرع حبوباً في فضاء واسع، ستنبث يوماً خيراً وطيباً"⁽⁹⁾، وتنتهي بالمشهد ذاته بعدما أدّى الخادم المهمة "شعر بثقل

ما في رجليه وهو يتعد عن المرفأ. غداً عليه أن يحضر نفسه لركوب السفينة التي نقلت رفاة مونسنور ديبوش، هل سيمنحه الله الشجاعة الكافية لمغادرة هذا المكان الصعب الذي يلتصق بالذاكرة بسرعة⁽¹⁰⁾. ويتضمن هذا المشهد المتعلق بإعادة رفات الأسقف الفرنسي إلى الأرض الجزائرية التي أحبتها الحكاية كلها. ولذلك يمكن أن نقول من الآن إن هذه السيرة الروائية جاءت في سياق روائي محكم البناء يخضع للتقطيع الزمني والتقديم والتأخير وترتيب للمقاطع السردية يجافي التابع الحكائي التقليدي. وإذا حددنا الحكاية بتاريخين هما 27 نوفمبر سنة 1832 و28 جويلية سنة 1864 فإنها تُروى بداية من تاريخ نهايتها وهي بالتالي لا تخضع لترتيب زمني دقيق. فالسرد يظل يراوح بين التاريخين، يذهب ويحيى، ويرواح بين السيرتين، تتقاطعان حيناً وتتوازيان حيناً آخر في خدمة مدارٍ حكائيٍّ مركزيٍّ وهو سيرة الأمير عبد القادر الجزائري التي تظل البؤرة السردية المركزية، إذ لا قيمة لسيرة الأسقف الفرنسي إلا في الإضاءة التي تسلطها على حياة الأمير في حالتي الحرب والسجن. يظهر الصّوتان: صوت الأمير وصوت الأسقف منذ صفحة التصدير. يخصّ التصدير الأول تصريحاً لمونسنور ديبوش "في انتظار القيام بما هو أهم، أعتقد أنه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد باستماتة في نصرة الحقّ تجاه هذا الرجل وتبرئته من تهم خطيرة ألصقت به زوراً وربما التسريع بإزالة الغموض وانقشاع الدكنة التي غلفت وجه الحقيقة مدة طويلة" والتصدير الثاني يخصّ الأمير:

« Si tous les trésors du monde étaient à mes pieds et s'il m'était donné de choisir entre eux et ma liberté, je choisirai ma liberté »

"لو كانت كل كنوز الدنيا تحت قدمي ولو خُيِّرْتُ بينها وبين حريتي لاخترتُ

الحرية."

2-2- لا شك أنّ ازدواجيّة السيرة تؤكد أنّ التّاريخ حتّى في لحظاته المتوتّرة لا يحول دون اللّقاء الإنسانيّ الكبير ودون تدفّق المشاعر الإنسانيّة، ولذا فإنّ هذه السّيرة التّاريخيّة التي تُروى ليست سيرةً تاريخيّةً عاديّةً يُمجّد فيها البطلُ التّاريخيّ وتلاحق بطولتهُ تؤرّخ لكينونة فرديّة أو جماعيّة، بل هي سيرةٌ تاريخيّةٌ يسعى فيها السّارد إلى الإمساك باللّحظات التّاريخيّة التي تُشرق فيها الإنسانيّة ويتجلّى فيها اللّقاء الإنسانيّ الكبير رغم اختلاف اللّغات والأديان والثّقافات.

3- في الرّواية التّاريخيّة خطاب تخيليّ ولكنّه خطابٌ يعقد علاقة مع التّاريخ يريدّها حقيقيّةً. وبذلك يكون التّاريخ موضوع التّخيل.

3-1- إنّ موضوع التّاريخ في هذه الرّواية هو مقاومة الاحتلال الفرنسيّ الاستيطانيّ للجزائر. فبعد أن دخل الفرنسيّون مدينة الجزائر وبسطوا نفوذهم على الشّرق سعوا إلى بسط نفوذهم في اتّجاه الغرب بين عامي 1832 و 1847. ففي 22 فبراير عام 1841 أعلنت فرنسا على لسان حاكمها في الجزائر بيجو طوماس روبرت الحرب الشّاملة على الجزائر. في هذا السّياق التّاريخي الدّقيق المتمثّل في تحلّي الأتراك عن حماية رعاياهم وتواطؤ سلطان المغرب، ظهر الأمير عبد القادر ليكون سلطاناً على الجزائر، يوحّد قبائلها ويقاوم الحركة الاستيطانيّة التي تقودها فرنسا وليقود حرباً طويلة الأمد "تحتاج إلى صبر كبير .. وإلى كثير من الحكمة والكثير من التّبصّر" (11).

3-2- لقد كانت الرّواية وفيّةً للتّاريخ إلى حدّ بعيد، إذ تقف عند المنعرجات الكبرى التي مرّت بها هذه الحرب: محاكمة رؤساء القبائل الذين خانوا (12) -محاولة استرجاع مدينة وهران التي سلّمها الأتراك إلى الفرنسيين (13) -الإغارة على القبائل -استقرار الأمير في قصر إغريس (14) - عقد المعاهدات مع قوّاد الجيش الفرنسي -

علاقة الأمير بالقبائل المرتدة - المواجهات مع قوادر الجيش الفرنسي - انتصاراته وهزائمه - سقوط معسكر عاصمة الأمير - خيانة الخلفاء⁽¹⁵⁾ المفاوضات مع الجيش الفرنسي - حملته على التيجانية⁽¹⁶⁾ - تسلّمه لمدينة تلمسان⁽¹⁷⁾ تدمير زمالة الأمير⁽¹⁸⁾ - تحالف سلطان المغرب مع الفرنسيين ضدّ الأمير⁽¹⁹⁾ - ملاحقة الأمير في الأراضي المغربية⁽²⁰⁾ - زيارته للسلطان مولاي عبد الرحمان⁽²¹⁾ - الحرب التي شنها سلطان المغرب عليه - هزيمته واستسلامه - اعتقاله بأببواز - إطلاق سراحه ونفيه إلى القسطنطينية. كلّها أحداث تاريخية نستطيع أن نتأكد من مصداقيتها. ولا شك أنّ نصوصاً تاريخية موثوقة عاد إليها المؤلف ليصوغ موضوعه. ذلك أنّ كلّ رواية تاريخية تقتضي وجود واقع تاريخي كامل وراء إنتاج تخيلية هذه الرواية وتاريخيتها أيضاً. وبالتالي فالرواية بهذا المعنى تحيل على معطى خارج اللغة، بل تشخّص كائناً خارج اللغة وهو هذا الواقع التاريخي الحفائي، لكنّ هذا الكائن هو في الرواية الواقعية من باب الاحتمال ولكنّه في الرواية التاريخية من باب الحقيقة. وقد أثارت الإنشائية اليونانية هذه المفارقة بين الخطابين. فقد قال أرسطو في كتابه "فنّ الشعر" وواضح كذلك ممّا قلناه أنّ مهمّة الشّاعر الحقيقية ليست في رواية الأمور كما وقعت فعلاً بل رواية ما يمكن أن يقع والأشياء ممكنة إمّا بحسب الاحتمال أو بحسب الضّرورة، ذلك أنّ المؤرّخ والشّاعر لا يختلفان بكون أحدهما يروي الأحداث شعراً والآخر يرويها نثراً، وإمّا يتميّزان من حيث كون أحدهما يروي الأحداث التي وقعت فعلاً بينما الآخر يروي الأحداث التي يمكن أن تقع⁽²²⁾.

4- يحرص المؤلف على تدعيم هذه الواقعية التاريخية داخل النصّ ذاته عن طريق إحالاته الدّاخلية العديدة. فإضافة إلى الإحالة الخارجيّة على الواقع التاريخي يكتفّ المؤلف إحالاته الدّاخلية. ولذلك تستوقفنا مجموعة من النّصوص الدّاخلية، من ذلك صكّ البيعة لعبد القادر ابن الشّيوخ محي الدين أميراً وسلطاناً على أهل مناطق

معسكر وإغريس الشّرقى والغري ومن جاورهم واتّحد بهم وبني شقران وعيّاس والبرجيّة واليعقوبيّة وبني عامر وبني مهاجر وغيرهم والمؤرّخ في 27 نوفمبر عام 1832 ورسالة محمّد التّيجاني إلى الأمير عبد القادر ⁽²³⁾ وكتاب التّنظيمات العسكريّة ⁽²⁴⁾ وخطاب حاكم الجزائر بيجو طوماس روبرت ⁽²⁵⁾ وكتاب الأمير نفسه أي السّيرة التي دوّنها خليفة ابن التّوهمي ، كاتب الأمير الخاص ورسالة نابليون بونابارت إلى اللّورد كيث ⁽²⁶⁾ وجريدة le crédit عدد 16 جانفي 1849 ورسائل مونسنير ديبوش ورسالته الشّهيرة إلى نابليون ⁽²⁷⁾ ورسائل الأمير إلى المونسنير، ثم مجموعة من الخرائط الموثوقة باللّغة الفرنسيّة نذكر منها على سبيل المثال حملة عبد القادر الكبيرة والأخيرة من 22-09-1845 إلى 18-02-1846 ⁽²⁸⁾ - محافظة وهران ⁽²⁹⁾ - نحو غزو مملكة من الممالك (الوضعيّة الإقليميّة عام 1839 في محافظة الجزائر ⁽³⁰⁾ - المعركة الأخيرة (مدن غرب الجزائر - شرق المغرب) ⁽³¹⁾ وهي كلّها تحيل على مصادرها التي أخذت منها - ثم في التّهاية مجموعة من مواقف القوّاد الفرنسيين ترد بلغتها الأصليّة في المتن والهامش وقد أخذها المؤلّف من مصادرها التّاريخيّة. إنّها كلّها وثائق تاريخيّة أصيلة وأصليّة أدرجت في الرّواية.

4-1- إنّ التّاريخ عبر هذه الإحالات الدّاخلية والخارجيّة يقف بقوة وراء هذه الرّواية ليمثّل نصّاً معطى وينتج نصّاً مبنياً هو هذه الرّواية "كتاب الأمير" يوحّد بينهما موضوع واحد هو سيرة الأمير عبد القادر الجزائري. لكنّ التّاريخ داخل الرّواية يسرّد. وعندما يسرّد التّاريخ يدخل بالضرورة خانة التّخييل ويمجد القارئ نفسه بين مرجعيّتين: مرجعيّة تاريخيّة ومرجعيّة تخيليّة. وإذا كان الأمر يتعلّق بسيرة روائيّة فإنّ شخصيّة عبد القادر الجزائريّ باعتبارها شخصيّة تاريخيّة مرجعيّة يلوّنها التّخييل ويحوّلها بهذا المعنى إلى شخصيّة فنيّة إذ يصبح الحدث التّاريخي مرجعاً لخطاب عن الحدث، فليس للعالم حقيقة ولكنّ العالم يُؤوّل، وعندئذ يصبح التّاريخ تخيلاً

والتّخيل تاريخاً، لأنّ السّارد في النصّ، وهو يسرد الحقيقة التّاريخيّة، يحوّلها بالضرّورة إلى صورة تخيليّة. فعندما نقرأ على سبيل المثال "تكاثف المطر والبرد ليَجْعَلَا من صباح الجمعة هذا صباحاً قاسياً وصعب التّحمّل. يبدو أنّ الصّلوات وصلت إلى الله على الرّغم من أنّ القلوب زادت انغلاقاً منذ التّوقيع على معاهدة دو ميشال" أو "فجأة اكتظّ المسجد الصّغير المطلّ على جنان الباي . ساد الصّمت برهة ممزوجة بأسئلة محيرة. حاول الأمير أن يستقيم في جلسته بصعوبة ، ساعده كاتبه قدّور بن محمّد برويلة، عدلّ قليلاً من ظهره حتّى بالأم جرح موقعة الحنايا قد خفّ قليلاً"⁽³²⁾. فتُعبّر في هاتين الجملتين السّرديّتين وظائف سردية مرجعية وأخرى وهي كثيرة تخيليّة، وبالتّالي يمتزج التّخيل بالتّاريخ، بل تهيمن المرجعيّة التّخيليّة على المرجعيّة التّاريخيّة. وإذا أردنا أن نستعمل المصطلحات السّردية قلنا إنّ كلّ الوظائف تخيليّة باستثناء وظيفتين ذات مرجعيّة تخيليّة هما التّوقيع على معاهدة دو ميشال في الجملة الأولى وموقعة المنايا في الجملة الثّانية. ورغم أنّ الشّخصيتين (الأمير وكاتبه) في هاتين الجملتين السّرديّتين شخصيتان مرجعيّتان فإنّهما وهما تؤدّيان وظائفهما تتحوّلان إلى شخصيتين تخيليتين. وتبدو هذه الاستراتيجيّة في السّرد استراتيجيةً عامّةً، إذ ينتقي السّارد مجموعةً من الأحداث ذات المرجعيّة التّاريخيّة لتكون بؤراً تنفتح على التّاريخ ومنها ينمو السّرد ليسبح في التّخيل. فمشاعر الأمير وأحاسيسه وأحاديثه مع رفاقه ومعاركه ووصف الأمكنة والسّياق الاجتماعي والطّبيعي الّذي تجري فيه الأحداث هي كلّها من وظائف السّارد التّخيليّة تخضع لرؤيته ووجهة نظره في تقديم الأحداث والشّخصيات. فلا معنى مثلاً لهذه الجملة السّردية الّتي تصف إحدى معارك الأمير "عندما لوح الأمير بيده اليمنى، ارتفعت الأعلام الكثيرة مخترقة الصّيفوف وصهلت الأحصنة بقوة، فتحرك فرسان المقدّمة متبوعين بالميمنة والميسرة ووسط العسكر، بألياتهم الكثيرة وأسلحتهم المتنوّعة.

وعندما التفت الأمير قليلاً إلى الورا للمرّة الأخيرة، وقبل أن يفصله الجبل عن البرانس لم ير شيئاً إلاّ الأدخنة التي كانت تتعالى من كدّات..⁽³³⁾ إلا على سبيل التّخييل المستفيد من وصف المعارك في الأدب والفنّ عموماً. ثمّة إذن في الخطاب السّرديّ صنفان كبيران هما السّرديّة والمرجعيّة أي "سرد التّخييل ونتاج المؤرّخ، وإذا كان السّرد التّخييليّ يحقّق استعمالات مرجعيّة خاصة مبتكرة فإنّ عمل المؤرّخ عادة ما يستدعي مرجعيّة تُدرج ضمن الأمبريقا وضمن حدود تستهدف أحياناً أحداثاً وقعت بالفعل" على حدّ عبارة رولان بارت⁽³⁴⁾.

4-2- إنّ التّاريخ قد كُتب، ولا نعتقد أنّ الرّواية تكتب التّاريخ وترتبط به لتعيد التّعبير عمّا قاله التّاريخ بلغة أخرى. بل إنّها تتعامل مع التّاريخ للتّعبير عمّا لا يقوله التّاريخ. وفي هذا السّياق نتحدّث عن وجهة النّظر التي يتبنّاها من يروي النصّ ومن ورائه المؤلّف بطبيعة الحال.

تظهر وجهة نظر المؤلّف جليّة واضحة من خلال البنية المزدوجة التي اختارها لهذه الرّواية، إذ ظلّ السّرد يراوح بين شخصيّتين مرجعيّتين هما عبد القادر الجزائري ومونسنيور دوبوش، أسقف مدينة الجزائر عندما كان الأمير عبد القادر يسعى إلى بناء دولته في الغرب، وهما مبدئيّاً شخصيّتان متناقضتان، فالأمير رجل سياسة وحرب والأسقف رجل سلم ودين، ولكنّ المؤلّف أراد أن يضع موضوعه في إطار سياق ثقافيّ غربيّ، فكأنّ الخطاب ليس موجّها لقارئ عربيّ بقدر ما هو موجّه إلى قارئ غربيّ وفرنسيّ بالخصوص. فالرّواية تريد أن تدافع عن الأمير من وجهة نظر غربيّة، ولذلك استدعت شخصيّة الأسقف الفرنسيّ الذي أحبّ الأمير عبد القادر وأحبّ الجزائر وأوصى بأن تعود رفاته إلى أرضها "ارتبط بهذه الأرض فدافع عنها باستماتة ودافع عن رجلها الكبير، الأمير مثل الذي يدافع عن كتاب مقدّس، استمات في الدّفاع عنه حتّى جعل حياته كلّها رهن إطلاق سراحه.. الأمير كان

وسيلته للوصول إلى المحبة العليا⁽³⁵⁾ لا شك أنّ المنسنيور ديبوش لعب دوراً هاماً في إطلاق سراح الأمير وهو فعل يستند إلى مرجعية تاريخية حقيقية "الأحقاد أحياناً تعمي البشر. الحلّ الوحيد المتبقي بين يديّ هو أن أبدأ في كتابة هذه الرسالة إلى رئيس الجمهورية لويس نابليون بونابارت. رسالة لا شيء فيه إلّا ما رأيته العين أو أملاه القلب. الأوضاع تغيّرت ولا بدّ أن يكون لويس نابليون بونابارت الذي عرف المنفى، يدرك اليوم قسوة الظلم والضرارة التي يشعر بها الإنسان وهو بعيد عن التربة التي نبت فيها"⁽³⁶⁾. ولكنّ الرسالة البليغة التي نستنتجها من علاقة الرجل المسيحي بالأمير المحارب هي أنّ القيم الإنسانية الكبرى هي التي تجمع بين الرجال رغم اختلافاتهم الثقافية واللغوية والدينية. وعن طريق سيرة المونسنيور ديبوش يظهر الوجه الآخر للأمير الذي يُظهره التاريخ على أساس أنّه رجل دولة المقاتل والسياسي الماهر، وهو الوجه الإنساني العميق المؤمن والخير والمتسامح "كان مندهشاً من سماحة الأمير الذي لا شيء يجعله يختلف عن كبار الناس الطيبين الذين قضوا العمر في عزلة الرهبان بحثاً عن طريق يقربهم أكثر إلى الله"⁽³⁷⁾ "منذ أن فاوضه في السجن تأكد له أنّ هذا الرجل لو امتلكنه الكنيسة في صفّها لتحوّل إلى قوّة كبيرة لمواجهة كلّ الخييات والانتكاسات"⁽³⁸⁾. ويركّز السرد على الحوار بين الرجلين وهو حوار تخيلي لا شك يعكس وجهة نظر السارد ومن خلاله يظهر التوافق الفكري بين الرجلين حول قيمة مركزية هي أنّ الإنسانية تجمع ولا تفرّق وهي "استحقاق يحتاج إلى مجهودات دائمة لتحقيقه.. ويقضي الإنسان العمر كلّهُ بحثاً عن تأكيد إنسانيته لأنّ كلّ ما يحيط به عبارة عن مزلق متعدّدة عليه تفاديها بشهامة وعزّة نفس"⁽³⁹⁾. ولا شك أنّ المؤلّف قصد هذه البنية السردية المزدوجة حتّى يتيح هذا اللقاء بين ديبوش وبين الأمير، بين المسيحي والمسلم وبين رجل الدّين ورجل الدّولة ليبرز عن طريق الحوار بين الرجلين كثيراً من المسائل السّياسيّة والخطط الحربيّة الخاصة بالأمير.

فالحوار يشير إلى موقف الأمير من الحرب "صحيحٌ أنّ الحروب هذه هيّ ولكن يمكننا أن نحدّ من جرائمها وانزلاقاتها حتّى عندما تكون هذه الأخيرة عادلة في عمقها أو على الأقلّ لها ما يبرّرها"⁽⁴⁰⁾، ويشير كذلك إلى معاهدة دوميشال التي لم يحترمها الأمير "عظيمٌ أن تتكلّم عن خصمك بهذه الطّريقة، لم يشكّك دوميشال في نزاهتك أبداً ولكنّه يضيف في دفاعه أنّ الورقة المقدّمة من طرف بن دوران ليست إلّا وثيقة مزوّرة"⁽⁴¹⁾. ويتحدّث كذلك عن لحظات الضّعف التي مرّ بها الأمير وهو يقوم الوضعية السياسيّة التي كان عليها "كنت صادقاً. فكّرت في لحظة من اللحظات أنّ الوضعيّات تغيّرت ولم أعد قادراً على تسييرها، ربّما كان غيري أفضل منها. عندما نحسّ بالضّعف يُستحسن أن نترك المسؤوليّة لمن هو أهلٌ لها"⁽⁴²⁾ كما يتعرّض إلى طبيعة العرب عموماً والوضعية التي كانوا عليها "العرب لا يحسّون بالألم إلّا عندما يُجرّحون بسكّين حادة لأنّ كلّ واحد يعتقد أنّ الأمر لا يهمّه وأنّ الكوارث لا تصيب إلّا الآخرين"⁽⁴²⁾ ويتحدّث عن خيانات حلفائه من الخلفاء⁽⁴³⁾ وكيف خسر مواقعه الحربيّة والسياسيّة "كان حلمي أن أجعل منها (معسكر) مدينة حرب. ولكن كذلك دار علم وثقافة كما كانت. الوقت لم يسعفنا والحرب حرمتنا من علمنة المدينة"⁽⁴⁴⁾.

إنّ الحوار كان ضروريّاً ليعرض الأمير وجهة نظره في مسائل الحرب والسّلم، بيد أنّ وجهة النظر هذه تتطابق مع وجهة نظر السارد من الدّرجة الأولى وهو يروي سيرة الأمير. فالصّورة التي يقدّمها عنه هي أنّه رجل سياسة يفضّل السّلم على الحرب⁽⁴⁵⁾ ويدرك اختلال موازين القوى بين دولته ودولة الاحتلال والوضعية الحضاريّة التي عليها العرب في الجزائر "إذا لم نبن آلةً حربيّةً موازيّةً لآلتهم أو على الأقلّ قريبة منها سنظلّ تحت رحمتهم"⁽⁴⁶⁾، وفي الوقت نفسه يُظهره سياسياً ماهراً، يُدرك قوّة عدوّه فيلتجئ إلى الحلول السياسيّة عبر الاتّفاقيّات والمفاوضات، وهي

كلّها في التّهاية وجهة نظر المؤلّف، وخلاصتها أنّ الحرب الّتي قادها الأمير عبد القادر كانت حرباً عادلة، ومع ذلك كان الأمير متحلّياً بقيم إنسانيّة عالية وأنّ علاقته بقوّاد الجيش الفرنسي كانت إلى حدّ بعيد قائمة على الاحترام المتبادل وأنّ وراء الرّجل المحارب يكمن إنسان مؤمن تقّيّ عبره تتجلّى القيم الإنسانيّة في أبهى صورها.

3-4- إنّ ما يميّز هذه السّيرة التّاريخيّة الّتي كتبها واسيني الأعرج، وقد خضعت بطبيعة الحال إلى عمليّة انتقاء، هو أنّها وهي تسعى إلى أن تكون وفية للتّاريخ لم تركز على مفهوم البطولة التّاريخيّة، فقد كان الأمير عبد القادر كما يبدو من خلال هذه السّيرة رجل دولة وهو بحكم وضعيته هذه عاش لحظات القوّة كما عاش لحظات الضّيف، ولم يسع المؤلّف إلى إظهاره بمظهر الرّعيم البطل الضّحيّة، وإنّما سعى إلى وضعه في إطاره التّاريخيّ، فالعوامل التّاريخيّة الموضوعيّة الدّاخلية والخارجيّة في القرن التّسع عشر منذ احتلال الجزائر لم تكن تسمح بإقامة دولة قويّة قابلة للحياة. فالأوضاع الاجتماعيّة والنّظام القبليّ وبروز ظاهرة الاستعمار التّوطينيّ والتّحالف القائم بين السّيطرة الاستعماريّة والسلطان المغربيّ وبعض مواقف الأمير عبد القادر الّتي لم تكن صحيحة، كلّها أسباب أدّت إلى سقوط دولة الأمير واستسلامه في نهاية الحرب. فلا يكفي أن تكون الحرب عادلة حتّى ننصر. فمع عدالة القضية لا بدّ من أسباب تاريخيّة تاريخيّة ملائمة حتّى يجيء التّصرّ.

4-4- وبقطع النّظر عن مدى وفاء الرّواية للتّاريخ فإنّنا نعتقد أنّ المؤلّف قدّم قراءة شخصيّة في سيرة الأمير عبد القادر الجزائريّ، حاول لا شك أن يكون فيها موضوعياً ومحياداً إلى حدّ بعيد وهو يعتمد الوثيقة ويحيل عليها. فعبد القادر الجزائريّ في رواية كتاب الأمير هو صورة رسمها واسيني الأعرج كما رآها بالاعتماد على الوثيقة التّاريخيّة. وبالتّالي فالرّواية هي أقرب إلى أن تكون قراءة في التّاريخ،

ذلك أنّ صوت السّارد كثيرا ما يلتبس بصوت المؤلّف. فعندما يقول على سبيل المثال "عندما عاد إلى خيمته في المرتفعات فتح كتاب ابن خلدون ثمّ خطّ على حوافه بعض الكلمات"⁽⁴⁷⁾ أو عندما يقول "كان قد توغّل في عمق البهو المؤدّي إلى غرفة نومه، بعيداً عن كلّ شيء، بعد أن فتح كتاب الإشارات الإلهية في العلامة الّتي وضعها في آخر ليلة عندما فتحه، قبل شهرين بالضّبط، على صفحة الغريب"⁽⁴⁸⁾، ندرك أنّ المؤلّف يتحدّث عن نفسه وعن مشاغله الثقافيّة أكثر ممّا يتحدّث عن صاحب السّيرة.

ثمّ إنّ استدعاء شخصيّة المونسنيور ديبوش وإن كانت شخصيّة مرجعيّة تاريخيّة لعبت دورا في حياة الأمير عبد القادر الجزائري كان استدعاء مقصوداً عندما جعل منها شخصيّة مركزيّة في الرواية. وهي إذ تمثّل الغرب المسيحيّ في القرن التّاسع عشر، فقد كانت مطيّة المؤلّف لطرح علاقة الجزائر بالغرب المسيحيّ وبالأخصّ بفرنسا من وجهة نظر جديدة. فلم يكن الأمير عبد القادر الجزائريّ كما تصوّره القوى الاستعماريّة الجديدة بفرنسا رجلا محاربا متعصّبا لدينه وثقافته ولغته وقومه، بل كان رجلاً متحضّراً لا يقلّ قيمة عن نابليون بونابارت نفسه "عبد القادر مثل نابليون متديّن وهادئ وبسيط في ملبسه ومعه، حيويّ وشجاع وسيّد نفسه، صادق وعبد لوعده، ولا شيء يفقده صوابه مثل الكذب والبهتان. مثل نابليون، متفان في خدمة عائلته ويمارس نوعا من السّحر على كلّ الّذين يقتربون منه. وسخاؤه أهل لكلّ مديح. وهناك ملمح آخر للشّبه هو الحنان وتقدير يكاد يكون مثل الدّين للأمّة"⁽⁴⁹⁾. ولذلك جاء استدعاء شخصيّة المونسنيور ضربا من ردّ الاعتبار للأمير⁽⁵⁰⁾.

4-5- إنّ قيمة الرواية التّاريخيّة ليست في طبيعة الأحداث التّاريخيّة الّتي ترويها، بل في الطّريقة الّتي بها تُعرض الأحداث، وهي طريقة تقوم أساساً على الانتقاء

وعلى خصوصيّة التّركيب، وهذا ما فعله واسيني الأعرج، فقد ركّز على لحظات المواجهة بين السّيطرة الاستعماريّة وبين الأمير عبد القادر، وهي مواجهة لم تكن قتاليّة دائماً بل كانت أيضاً وفاقية من خلال المعاهدات المتعدّدة الّتي كان يعقدها مع خصومه ومن خلالها يبرز الوجه السّياسي والأخلاقيّ للأمير كما ركّز أيضاً على لحظات الضّيعف الّتي عاشها، وقد أدرك وهن الدّولة الّتي يريد أن يبنّيها وعدم قابليتها للعيش في إطار السّياق التّاريخي الخاف بها. وبطولة الأمير كما يراها واسيني الأعرج ليست في المعارك الّتي خاضها بل في الوعي السّياسي الّذي يمتلكه وفي البعد الإنسانيّ الذي تزخر به هذه الشّخصيّة التّاريخيّة. وعندئذ يُطرح السّؤال التّالي: لماذا اختار واسيني الأعرج أن يكتب تاريخ الأمير عبد القادر الجزائريّ في بداية الألفيّة الثّانية وما الخطاب السّياسي الذي يريد أن يقوله؟

5- قد نجد تبريراً أدبيّاً عامّاً يتمثّل في عودة الاهتمام بهذا النّوع الأدبي في تاريخ الرّواية العربيّة المعاصرة. ثمّة وعي جديد بالتّاريخ منذ صدور رواية الزّيني بركات لجمال الغيطاني، بدأ يتدعّم شيئاً فشيئاً، وظهرت روايات هامة على غرار خماسيّة مدن الملح لعبد الرّحمان منيف ومدارات الشّرق لنبيل سليمان وثلاثيّة غرناطة لرضوى عاشور وغيرها من النّصوص. وفي هذا السّياق يمكن أن ندرج رواية كتاب الأمير. فلكي تكون روائيّاً كبيراً عليك أن تكتب رواية تاريخيّة كبيرة. ولكيّ أعتقد أنّ كلّ نصّ أدبيّ كبير هو إجابة عن سؤال. وهو ينشأ في سياق اجتماعيّ وسياسيّ معيّن، يجيب عنه وينخرط فيه. نحن نعتقد أنّ رواية كتاب الأمير تطرح من جديد العلاقة المتوتّرة بين الجزائر وفرنسا في سياق تاريخيّ جديد. فبعد الاستقلال بعقود يعود الجزائريّون إلى طرح هذه العلاقة المتوتّرة ويذكّرون بالتّاريخ، ويطالبون بحفّهم في الاعتذار على الجرائم الّتي اقترفها الفرنسيّون في حقّ الشّعب الجزائريّ أثناء الاحتلال. فالرواية إذن هي وليدة هذا السّياق السّياسي وما تريد أن تقوله الرّواية

أنَّ الأمير كان رجلاً مسالماً وأنَّ الحرب فُرضت عليه وقد احترمت معاهداته مع الفرنسيين وأطلق سراح المساجين الفرنسيين وقد شهد بذلك رجلٌ منهم وهو الأسقف ديبوش الذي "منذ أن فاوض الأمير في السِّجناء تأكَّد له أنَّ هذا الرجل لو امتلكته الكنيسة في صفِّها لتحوَّل إلى قوة كبيرة لمواجهة كلِّ الخيَّات والانتكاسات" (51).

6- يبقى السِّؤال المتعلِّق بالمقوِّمات الإنشائيَّة لهذه الرواية التَّاريخيَّة. إنَّ المقوِّم الأساسيِّ لهذه الرواية التَّاريخيَّة الَّتِي كتبها واسيني الأعرج يتمثِّل في الميثاق الَّذِي تعقده مع قارئها، فعلى الرواية أن تظنَّ القارئ على أنَّ الأحداث الكبرى الَّتِي تروى هي أحداث تاريخيَّة أي أنَّها وقعت فعلاً في التَّاريخ. وبالتالي فإنَّ الرواية التَّاريخيَّة هي الَّتِي تتضمن تصريحاً أو تلميحاً ميثاقاً تاريخياً هو ميثاق الحقيقة وليس ميثاق الاحتمال.

6-1- لا شكَّ أنَّ الكاتب لا يصرِّح بأنَّه يكتب رواية تاريخيَّة تصريحاً مباشراً، ولكنَّ العنوان كتاب الأمير، مسالك الحديد هو في حدِّ ذاته وجه من وجوه الميثاق التَّاريخيِّ إذ يحيل مباشرة على كتاب حقيقيِّ ألفه الأمير عبد القادر "وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمَّدي الغالب ويليهِ ديوان العسكر المحمَّدي الملياني، ثمَّ تأتي العتبة النصِّيَّة الهامة المتمثِّلة في التَّصدير إذ تحيل مباشرة على شخصيَّتين تاريخيتين هما الأمير والأسقف، وبالتالي فهي وجهٌ ثانٍ للميثاق.

6-2- المقوِّم الثَّاني هو المدار الحكائيِّ التَّاريخيِّ، وهو مدار أساسيِّ في هذه الرواية. فالتَّاريخ ليس إطاراً للأحداث بل هو موضوعها الأساسيِّ. إنَّ سيرة عبد القادر الجزائريِّ رواها وأملأها في سجنه في أمبواز ونشرت بالجزائر وقد حقَّقها الأستاذان محمَّد بناناب ومحمَّد ألبون، والنَّصوص الفرنسيَّة في المتن هي نصوص

حقيقيّة مأخوذة عن أصحابها من العسكريين وغيرهم ونصّ البيعة ورد في الرواية كما هو بصيغته الحرفيّة ونصّ إعلان تسريح الأمير من المعتقل نصّ حقيقيّ. وبالتالي ليس هناك في الرواية محكيّ خارج السّياق التّاريخيّ وهو ما يمكن أن نسمّيه بتاريخية المدار السّرديّ.

3-6- أمّا المقوم الثالث فهو يتعلّق بالإحالات المرجعيّة النصّية. فالرواية لا تكتفي بالإحالة على نصوص خارج النصّ الرّوائيّ وقد ذكرها لي واسيني الأعرج وهي كتاب تحفة الزّائر لمحمّد ابن الأمير عبد القادر وكتاب الفرنسي بلمار عن الأمير وكتاب بوازون حول الحياة العسكريّة للأمير وكتاب تشرشل عن الأمير وهو في شكل حوار طويل، وقد جابلوا كلّهم الأمير عبد القادر، إضافة إلى مجموعة من الوثائق التّاريخيّة تتمثّل خاصة في مجموعة اتّفاقيّات مع الفرنسيين واتّفاقيّة طانجة بين المغاربة والفرنسيين ووثائق الحركة الماسونيّة وهي كثيرة وكتب المحدثين، لكنّ الرواية أيضا تحيل على نصوص تاريخيّة داخلية كنّا قد أشرنا إليها أثناء التّحليل.

4-6- إنّ هذه المقومات الثلاثة هي مقومات أساسيّة في الرواية التّاريخيّة. فلا بدّ من مدار حكائيّ تاريخيّ ولا بدّ من ميثاق قراءة تاريخيّ ولا بدّ من إحالة نصّية تاريخيّة لنكتب رواية تاريخيّة أصيلة، ونحن نعتقد أنّ رواية كتاب الأمير: أبواب الحديد لواسيني الأعرج رواية تاريخيّة أمّوزجيّة، إذ استطاع المؤلّف بقدره فائقة أن يكتب نصّاً إبداعياً مشبعاً بالتّخييل دون أن يخون التّاريخ أو يتنكّر للرّاهن.

الهوامش:

- 1- محمد جمال باروت و د. عبد الرزاق عيّد، الرواية والتّاريخ دراسة في مدارات الشّرق، دار الحوار، اللاذقية، 1991، المقدّمة.
- 2- عبد الفتّاح الحجمري، هل لدينا رواية تاريخيّة، مجلّة فصول، المجلّد السّبادس عشر، العدد الثّالث، يناير 1997، ص. 60.
- 3- انظر قاموس اللّغة الفرنسيّة.
- 4- انظر موسوعة ويكيبيديا.
- 5- انظر L'univers des experts
- 6- J. Molino, Qu'est que le roman historique ? in La Revue de l'histoire littéraire de La France 1975.
- 7- عبد الفتّاح الحجمري، المرجع المذكور سابقا.
- 8- كتاب الأمير: مسالك الحديد، الفضاء الحرّ، الجزائر 2010، ص 76 .
- 9 - المصدر ذاته، ص 14 .
- 10- ذاته، ص 514 .
- 11- ذاته، ص 63 .
- 12- ذاته، ص 58 .
- 13- ذاته، ص 63 .
- 14- ذاته، ص 77 .
- 15- ذاته، ص 168 .
- 16- ذاته، ص 233 .
- 17- ذاته، ص 179 .
- 20- ذاته، ص 325 .
- 21- ذاته، ص 351 .
- 22- انظر أرسطو، كتاب فنّ الشّعْر، تعريب عبد الرّحمان بدوي، دار الثّقافة، بيروت 1952، ص 103 .
- 23- كتاب الأمير، ص 210 .
- 24- ذاته، ص 233 .
- 25- ذاته، ص 249 .
- 26- ذاته، ص 410 .
- 27- ذاته، ص 450 .

- 28- ذاته، ص 38 .
- 29- ذاته، ص 40 .
- 30- ذاته، ص 81 .
- 31- ذاته، ص 338 .
- 32- ذاته، ص 107 .
- 33- ذاته، ص 210 .
- 34- عن عبد الفتاح الحجمري، مرجع ذكر سابقا، ص 63 .
- 35- كتاب الأمير، ص 15 .
- 36- ذاته، ص 23 .
- 37- ذاته، ص 44 .
- 38- ذاته، ص 45 .
- 39- ذاته، ص 123 .
- 40- ذاته، ص 124 .
- 41- ذاته، ص 125 .
- 42- ذاته، ص 167 .
- 43- ذاته، ص 168 .
- 44- ذاته، ص 169 .
- 45- ذاته، ص 205 .
- 46- ذاته، ص 140 .
- 47- ذاته، ص 254 .
- 48- ذاته، ص 140 .
- 49- ذاته، ص 450 .
- 50- ذاته، ص 20 .
- 51- ذاته، ص 45 .

